٢٧

البناء الفني في رسائل الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي

د. أحمد عبد المنعم حالو
الأستاذ المشارك للأدب القديم في جامعة نزوى، سلطنة عُمان
a.munim@unizwa.edu.om

ملخَّص:

للإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي رسائل متعددة في مجال الحكم والسياسة والفتاوى الشَّرعيَّة. وقد سارت وفق منهج معيَّن عُني عناية تامة بأسِّها وأساسها، ومرافقها الأساسية وشكلها الخارجي، وترتيبها الداخلي، مع ما يُضاف إلى ذلك من خصائص بنائية ليكتمل ما تمت العنونة له بـ"البناء الفني في رسائل الإمام الخليلي". فالموضوع في هذا البناء الفني أس وأساس، والمتلقِّي هدفٌ يحرص على إرضائه وإيصال المعلومة إليه بحسب درجته وإمكاناته، والطريق لذلك لاحبة من بدء ومقدمة مناسبة تتضمن التحية والسلام ومعطيات الإرسال من ذكر للمرسل والمرسل إليه، ونعته بما يجب ممَّا يكوِّن في عمومه براعة استهلال وحسن دخول إلى الموضوع، يلي ذلك عرض الموضوع بشكل موجز، أو فيه شيء من الإطناب بالنظر إلى طبيعته ومقتضياته الفقهيَّة والقضائية، وكذلك المقتضيات السِّياسيَّة والإدارية والتوجيهية فيما سئل عنه الإمام وأجاب، وهو في ذلك كله يشكل لحمة واحدة مع المقدمة، ثمَّ مع الختام الذي يجب أن تنتهي به الرسالة مع الدعاء والتوقيع وذكر تاريخ المراسلة. والإمام في بنائه هذا يقتبس ويضمِّن من الكتاب والسنَّة ومعطيات التراث، بلغة أدبية رفيعة تفي بالغرض وتقوم بالمطلوب، مع ما ينتابها من صور وصيغ بلاغية لافتة، تمكن الدارس لهذه الرسائل من الإشادة بها، وما اشتملت عليه من قواعد البناء الفني وخصائص الارتقاء به. فهذا ونحوه مجال عمل الباحث، واهتمامه في هذا الموضوع.

كلمات مفتاحيَّة: الإمام الخليلي. مراسلات. بناء فني.

مقدِّمة:

لا بد قبل الخوض في البناء الفني في رسائل الإمام الخليلي من الوقوف على أهمية البحث، والإشكالية التي يطرحها، والمنهجية التي سيتبعها ثمَّ الموضوعات التي سيقف معها، وفي أولها البناء الفني في هذه الرسائل جملة وتفصيلاً، إذ هو العمدة في هذا البحث، وما يلي ذلك من أصوليات البناء العلمي لمثل هذا التوجه البحثي. وفي حديثنا عن الأهمية، يمكننا القول إن الرسائل قسيم متقدم من أقسام النثر الفني فيما اشتمل عليه في تاريخه من حديث وحوار، وحكاية وقصة، وسير ومقامات، وخطب ورسائل. بيد أن الخطب والرسائل كانت وما زالت تعد عمدة للنثر الفني، فإذا ما ذكر هذا النثر انصرفت العقول إليها دون غيرها؛ لما يتمتعان به من حضور فعّال، وما يحلان به من منزلة رفيعة بين أجناس الأدب، إضافة إلى ما اضطلعا به من أدوار ووظائف منذ الجاهلية، وحتى يوم الناس هذا.

على أن الناظر في هذه الرسائل قد لا يراها ولا ينظر إليها نظرته إلى الشق الثاني من الأدب العربي، ونعني به الشعر الذي ساد الساحة العربيَّة مرّ السنين، وذلك أنَّ الشعر له مقوماته التي تحافظ على بقائه وتساعد على تداوله ودورانه بين الناس من إيقاع وموسيقى داخلية وخارجية وارتباطه في كثير من الأحيان بالأحداث المهمة التي تمرّ بها الأمَّة.

وربما فات هذا الناظر أن النثر قد أثبت جدارته، واحتلّ مكانة لائقة عبر عصور الأدب كلها، وأن قلَّة المحفوظ أو المدوّن منه لا تعني قلَّة جدواه، وعظيم دوره في الحياة الأدبية والاجتماعيَّة والدينيَّة والسِّياسيَّة والإدارية في العالم العربي والإسلامي، فقد عبّر عن هذه الحيوات أيما تعبير، ولاسيما رسائله التي ما برح رجال السياسة والحكم، والعلم والفكر، والأئمة والقادة يتداولونها فيما بينهم، أو يتوجهون بها إلى غيرهم، يديرون من خلالها شؤون رعيتهم، وأوضاع مجتمعاتهم.

وهنا قد نبسط القول عن العموم (النثر) الذي دخل فيه الخصوص (الرسائل) فكلاهما من مشكاة واحدة، وما يصيب الأصل قد يلوي بالفرع أو يزري به، وربما كان وراء هذا التوجه في طرح الإشكالية النصوص التي أثبتها الدكتور أحمد درويش في كتابه تطور الأدب في عُمان، إذ يقول مقارنًا بين شقي الأدب الشعر

والنثر، وأيهما السائد، ولم؟ "ولا شك أن الشعر يمثل الجنس الأدبي الغالب على التراث العُماني، أو على الأقل الجنس الأدبي الذي احتفت المخطوطات بجانب كبير منه بالقياس إلى الجنس الأدبي المقابل، وهو النثر، ولعل مردّ ذلك يعود إلى أمرين أولهما: الطبيعة النغمية في الشعر التي تجعله أكثر علوقًا بالذاكرة، وأكثر قابلية للحفظ الفردي والجماعي، وبالتالي أكثر سهولة في الانتقال وقدرة على البقاء في عصور كانت المشافهة فيها تمثل وسيلة رئيسية في نقل المعارف والفنون والخبرات والتجارب"[١].

وكنا ألمعنا إلى مثل هذا الحديث عن سيادة الشعر، وعوامل بقائه واستمراره. وأمَّا الأمر الثاني الذي أشار إليه الدكتور درويش، أن بعض العلماء استفاد من هذه الخاصَّة في قدرة الشعر على التماسك في الذاكرة، والتنقل على الألسنة في جعلهم (النظم) وسيلة يصوغون من خلالها معارفهم؛ فيسهل تنقلها على ألسنة الطلبة، وجمهور المتعلمين فيما عُرف في عُمان وغيرها بنظم العلوم[٢] وهو ما فتح الباب واسعًا أمام هذه المنظومات لتسود مستفيدة من النغمة الشعرية المحفزة للذاكرة.

وحين عرّج على النثر في الأدب العُماني القديم وصفه بقوله: "...وجدنا النثر على قلَّة الموروث النسبي منه يثبت نفسه كظاهرة متميزة في التراث الأدبي والعلمي، سواء منه ذلك الذي ينتمي إلى شريحة التأليف الفقهي والتاريخي والفلكي والعلوم العربيَّة والإسلاميَّة، أو ذلك الذي ينتمي إلى النثر الأدبي بالمعنى المتعارف عليه"[٣].

والإشكالية التي تطرح نفسها هنا، لا محالة، التساؤل عن هذا التأليف الذي ينتمي إلى شريحة الفقه والتاريخ والفلك والعلوم العربيَّة الإسلاميَّة، والذي قام على تأليفه والعناية به جمهرة العلماء الفقهاء أو المؤرخون وسواهم، هل يعدّ حقيقة من النثر الأدبي بالمعنى المتعارف عليه، ونحوه رسائل الإمام الخليلي، هل تعد مثلاً في النثر الأدبي، وما هي المقومات الأدبية التي تملكها لتعدّ ضمن قسيم النثر الأدبي الموازي لقسيم الشعر، وهو في عمومه ممَّا يعطي للأدب كيانه ونكهته وخصوصيته المعروفة، فهذا ممَّا أخذ البحث على عاتقه الإجابة عنه ضمن منهجية علمية معيَّنة.

---

١) درويش، أحمد: تطور الأدب في عُمان، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٥-٦.
٢) المصدر نفسه.
٣) المصدر نفسه، ص٧.

يمكنني أن أتريث قليلاً في إطلاق المسمى المنهجي مقابل شيء من التوصيف للعمل الذي أنوي القيام به في دراسة رسائل الإمام الخليلي وبنائها الفني، فمثل هذا التوجه يحتاج إلى جمع الملاحظات واحدة تلو أخرى، ومحاولة الإفادة منها في بناء تكاملي في أساساته ودعائمه، ومن ثمَّ جدرانه وأسقفته وواجهته وتوابعه العامَّة، فكل ملاحظة في اتجاه، ثمَّ تجمع الملاحظات؛ ليتم مثل هذا العمل الاستقرائي والتحليلي بآن واحد في بدء الرسائل وفي عرضها وختامها مع تعداد أنواعها وتوجهاتها، فهذا ما سيغلب على منهجية البحث وتوجهه العلمي.

وأمَّا عن محاور البحث وموضوعاته، ففي البداية لنا وقفة مع المفهوم اللغوي والاصطلاحي للرسالة، يلي ذلك وقفة أخرى يسيرة في التعريف بالإمام، ثمَّ رسائله بتوجهاتها المختلفة من إدارية وسياسيَّة وعهود وإلى إخوانه مشايخ عُمان، ومشايخ المغرب العربي، ثمَّ ندلف لدراسة البناء الفني لهذه الرسائل، فكلمة الختام وبعض النتائج متبوعة بالحواشي وفهرس المصادر والمراجع.

المفهوم اللغوي والاصطلاحي للرسالة:

المفهوم اللغوي:

ترجع كلمة الرسالة إلى الأصل اللغوي (رَسَلَ) وهو يدلُّ على عدد من المعاني الحسية، فقد ذكر الخليل أن الرَّسْل: الذي فيه استرسال ولين، وناقة رَسْلة القوائم، أي سَلِسَلة لينة المفاصل[١]، وقال ابن دريد: "الرَّسْل: السهل السريع، ناقة رسلة: سريعة رجع اليدين، والرِّسل اللبن... وجاءت الإبل أرسالاً، أي يتبع بعضها بعضًا وكذلك الخيل أيضًا"[٢]. وقال ابن فارس: "الرَّسَل: ما أرسل من الغنم إلى الرعي... والرِّسْل: اللبن؛ لأنَّه يرسل من الضرع"[٣].

١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، قم، إيران، ط٣، ١٤٠٩هـ، ج٧، ص٢٤٠.

٢) ابن دريد، أبو بكر محمَّد بن الحسين: جمهرة اللغة، تحقيق د. منير رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م، ج٢، ص٧١٩.

٣) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمَّد هارون، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٣٩٢.

وممَّا سبق يمكن ردّ المعنى إلى الانبعاث والامتداد[١] وإلى كون الشيء مقسمًا يتلو بعضه بعضًا. بيد أن هذا المدلول اللغوي قد تطور من الاستعمال الحسي إلى الاستخدام المعنوي، فمن ذلك قولهم: "رسَل في القراءة: رتّل وحقق بلا عجلة"[٢] ويُقال: "ألقى الكلام على رسيلاته أي تهاون به"[٣] ومن ذلك أيضًا أن الرَّسل يعني الرخاء، واسترسلتَ إلى الشيء إذا انبعثت نفسك إليه وأنِستَ[٤]؛ يقود ما ذكرناه إلى حديث آخر في المفهوم الاصطلاحي لهذه الكلمة.

المفهوم الاصطلاحي:

لا شك أن هذه الكلمة قد تطورت، وصارت تستخدم بمعنى الرسالة، وهي تحميل جملة من الكلام المقصود بالدلالة، وكل رسالة فيما بين الخلق هي الوساطة بين المرسل والمرسل إليه في إيصال الأخبار[٥].

وقد ذكر ابن الأنباري عن ثعلب عن ابن الأعرابي أن الرسول والرّسيل والرسالة سواء[٦]، ومن ذلك قول كُثيرّ عزة:

لقد كذب الواشون ما بُحت عندهم بليلى ولا أرسلتهم برسيل[٧]

فرسيل هنا تعني الرسالة.

وممَّا ورد في استعمال الرسول بمعنى الرسالة قول العباس بن مرداس:

ألا من مبلِّغ عنِّي خفافا رسولاً بيت أهلك منتهاها[٨]

فأنث الرسول، إذ كان بمعنى الرسالة.

---

١) المصدر نفسه.

٢) ابن منظور، محمَّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م (رسل).

٣) المصدر نفسه (رسل).

٤) ابن فارس: مقاييس اللغة، ج٢، ص٣٩٢.

٥) الكفوي، أبو البقاء: الكليات، قابله د. عدنان درويش ومحمَّد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م، ج١، ص٣٨٥.

٦) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: بهجة المجالس، تحقيق محمَّد مرسل الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة ط١، ١٩٨٠م، ص٢٧٧.

٧) كُثيّر عزة: ديوانه، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص١١٠، وينظر اللسان (رسل).

٨) ابن مرداس، العباس: ديوانه، تحقيق د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص١٦٢.

مصادر رسائل الإمام الخليلي وموضوعاتها:

ترك الإمام الخليلي مجموعة من المكاتبات والمراسلات للقائمين على أمور دولته أو للملوك المجاورين أو لإخوانه المشايخ في عُمان وفي المغرب العربي، مع تراث فقهي ومجموعة من الفتاوى والعهود للولاة والقضاة، توفي رحمه الله عام ١٣٧٣هـ[١].

نقطة البداية عام (١٣٨٥هـ) حيث دلف إلى فسيح عالم المطبوعات كتاب وسم بـ"الفتح الجليل في أجوبة الإمام أبي خليل"، وهو جوهرة نفيسة من نفائس خزائن الأجوبة العلمية المحققة للإمام العلاَّمة الرضي محمَّد بن عبد الله بن سعيد بن خلفان الخليلي، وقد ضم الكتاب علاوة على هذه الأجوبة شيئًا من آثار من عاصر الإمام كالعلاَّمة الشيخ عامر بن خميس المالكي، والشيخ الرضي عيسى بن صالح الحارثي، وقطب الأئمة امحمَّد بن يوسف اطفيَّش، وغيرهم. وقد تولى طباعة الكتاب المطبعة العمومية بدمشق بعناية العلاَّمة عز الدين التنوخي[٢].

وقد تعددت محاولات جمع آثار الإمام بصورها المتنوعة ابتداءً من الفتاوى العلمية، وانتقالاً إلى المراسلات الشخصيَّة والسِّياسيَّة، ومرورًا بالعهود والأحكام. وتعد أولى هذه المحاولات ما جمعه الشيخ علي بن ناصر الغسيني من فتاوى الإمام ومراسلاته، إلاَّ أنَّها كانت قليلة، بعدها جاءت محاولة الشيخ سالم بن حمد بن سليمان بن حميد الحارثي الذي يبدو أنَّه تواصل ابتداءً مع الشيخ الغسيني ثمَّ رغب بإتمام هذا المجموع وترتيبه، وتوجيه العناية إليه؛ فقام بذلك أحسن قيام إلى أن تمّ توجيهه إلى دمشق لطباعته ونشره[٣].

جمع الشيخ الحارثي في هذا السفر مجموعة من الوثائق توزعت بين المراسلات والفتاوى، أخذت المراسلات منها جزءًا يسيرًا، إذ إنها بلغت تسعًا وتسعين رسالة. والجدير بالذكر أنَّها في الطبعة القديمة للسفر تقع في سبع وتسعين رسالة، وقد

---

١) السالمي، أبو بشير محمَّد الشيبة بن نور الدين عبد الله بن حميد السالمي: نهضة الأعيان بحرية عُمان، من مكتبة التراث، د. ت، د.م، ص٣٧٦ وما بعدها، وينظر: الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، طُبع بإشراف عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة العمومية، دمشق، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، المقدمة.

٢) الخليلي، محمَّد بن عبد الله بن سعيد بن خلفان: الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، جمع وترتيب الشيخ سالم بن حمد بن سليم الحارثي، فهرسة أحمد بن سالم الخروصي، ذاكرة عُمان، ط١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص٥. وهو الطبعة الحديثة من هذا الكتاب.

٣) المصدر نفسه، المقدمة، ص٦-٧.

علل ضابطه أحمد بن سالم بن موسى الخروصي ذلك بعودته إلى المخطوط، وحصوله منه على خمس وسبعين رسالة مستقلة في الباب الأول من أبواب الكتاب، وأضاف إليها أربعًا وعشرين رسالة من المطبوع ممَّا يتصل بالإمام من المراسلات ممَّا لم يجده في المخطوط[١].

وأمَّا الفتاوى فقد شغلت الحيز الأكبر من المجموع، إذ بلغت تسعمائة وعشر (٩١٠) مسائل في أبواب أصول الدين، والفقه وأصوله، كما أنَّها تناولت شيئًا من السياسة الشَّرعيَّة، وبعض المباحث الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة التي تعكس حالة العصر الذي عايشه الإمام[٢].

وأمَّا الكتاب الثاني الذي عرض لمكاتبات الإمام الخليلي وسيرته العطرة من غير الكتاب المشار إليه بطبعته القديمة والحديثة، فهو كتاب نهضة الأعيان بحرية عُمان لمؤلفه أبي بشير محمَّد شيبة بن نور الدين عبد الله بن حميد السالمي (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) والكتاب خال من معلومات النشر ومكانه وتاريخه عدا قوله "مكتبة التراث" و"من مكتبة التراث"، وهو مستقطع من "سيرة الإمامين المرشدين سالم بن راشد الخروصي ومحمَّد بن عبد الله الخليلي، وما حظيت به عُمان في أيامهما من الخيرات، وما كان بزمانهما من النوازل والحوادث والفتوحات"[٣] ممَّا رآه المؤلف بأم عينه، وكان قريبًا من ذلك كله ومعاينًا له، ولاسيما أنَّه كان العصا التي يتوكأ عليها والده الإمام نور الدين السالمي[٤] وهو ممَّن عاصرهما، وسعى سعيهما بحرية عُمان.

وقد أفرد المؤلف للإمام الخليلي فيما ولي ذكر وفاته قسمًا لذكر نماذج من كتاباته[٥]، فمن ذلك عهوده للقضاة (ثلاثة عهود) وأحكامه وقضاؤه بين الناس (أربعة أحكام) ومكاتباته السِّياسيَّة إلى ملوك السعوديَّة وأمرائها (ست مكاتبات) محتفظًا لوحده بذكر ردود أربعة على هذه المكاتبات[٦] في حين خلا كتاب "الفتح

١) المصدر نفسه، المقدمة، ص٩.
٢) المصدر نفسه، المقدمة، ص٨.
٣) نهضة الأعيان بحرية عُمان، المقدمة، ص٣.
٤) المصدر نفسه، المقدمة، ص٤.
٥) تنظر هذه المكاتبات في نهضة الأعيان بحرية عمان، ٥٠٨-٥٢٨.
٦) ينظر: المصدر نفسه، ٥١٥-٥٢٢.

الجليل" بطبعتيه من هذه الردود، وكتاباته إلى إخوانه المشايخ في عُمان (كتاب واحد) وثلاثة نماذج من كتاباته إلى إخوانه المشايخ في المغرب العربي على أن الكتاب الأخير منها في خلاصة رأيه بفتوى العالم القراري في هلال شوال، ممَّا سأله عنه المغاربة لم يرد في الرسائل في كتاب "الفتح الجليل"، وإنَّما ورد في "باب الصيام وفطرة الأبدان"[١].

مهما يكن فثمة نقطة أخرى لا بد من التعرض لها كونها هي الأخرى تؤثر في البناء الفني لرسائل الإمام، وهي موضوعات هذه الرسائل، إذ الموضوع بوجه عام يعني المضمون بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من أهمية في معطياتها، وما تتركه من أثر في لغة التخاطب والمعاني المطروحة، وما قد يتبع ذلك من خصائص تصويرية، وأخرى تمس اللفظ والتركيب والمشاعر المبثوثة، بدءًا من مقدمة الرسالة، ومرورًا بالتجاوز الحسن إلى أفكارها ومعانيها، وانتهاءً بخاتمتها، حتَّى تاريخ تحريرها مع مراعاة للمتلقي، وظيفته وطبيعته ووضعه الاجتماعي والسياسي، وسوى ذلك ممَّا له كبير الأثر في صوغ الرسالة، وإخراجها متكاملة شكلاً ومضمونًا.

وعلى العموم تعددت رسائل الإمام وتعددت معها موضوعاتها بحسب ما وقفنا عليه من مصادرها السابقة وأصوليات توثيقها، فثمة رسائل له في الإدارة[٢] وتولية الأمور، وما يتبعها من النظر في الخصومات والخلافات، وثمة رسائل أخرى في مخاطبة المشايخ من أهل عُمان علمًا أنَّ رسائله في الإدارة، هي نفسها التي خاطب فيها المشايخ من أهل عُمان، إذ كان يوجهها إليهم، ويطلب منهم القيام بما يجب فعله من أمور الإدارة وسياسة الناس[٣] وكذا رسائله في مخاطبة إخوانه في المغرب العربي[٤] وثمة رسائل أخرى تنحو المنحى السياسي من مخاطبة ملوك الجوار:

---

١) ينظر: الفتح الجليل، الطبعة القديمة (التنوخي) ص٢٤٥، والطبعة الحديثة (الخروصي) ص١٧٤.

٢) الفتح الجليل، ص١-٧٩. وثمة معظم رسائله، وعلى العموم فما سوف يأتي من حواش توثيقية هي من الطبعة القديمة لكتاب "الفتح الجليل، التنوخي" إلاَّ ما يشار إليه أنَّه من الطبعة الحديثة.

٣) المصدر نفسه، ص٣٢-٣٣، مع كثير من صفحات رسائل الإدارة. من نهضة الأعيان بحرية عُمان.

٤) المصدر نفسه، ص١١، ١٢، ١٣، ٥١، ٥٢، وتنظر، ص١٧٤.

السعوديَّة[١]، وسلطان مسقط[٢]، والقنصل البريطاني[٣]، وبعض السفراء[٤]، ومن رسائله ما كان يكتب به إلى القضاة[٥]، فمثل هذه الموضوعات المتنوعة التي حملتها رسائل الإمام[٦] ستترك أثرًا -لا محالة- في بنائها الفني وشكلها العام سواء في المقدمة أو الخاتمة وحتى من خلال فقرات عرضها، إذ سوف تنسج بحسب طبيعة المتلقي، وكونه مثلاً من رجال الإدارة والقضاء، أو من رجال السياسة وأصحاب السلطة من ملوك وأمراء، أو من وجوه القبائل ونحوهم ممَّا تربطه بالإمام وشائج صداقة وإخاء، وكله سنعرض له بوجه أو بآخر فيما يلي من هذه الدراسة.

البناء الفني في رسائل الإمام الخليلي:

مراعاة المناسبات في رسائل الإمام الخليلي:

من المتعارف عليه أن الرسائل أنواع، فمنها الرسائل الخاصَّة، وهي المتبادلة بين الأقارب والأصدقاء، وتسمى بالرسائل الأهلية، وفيها ينطلق الكاتب بحرية تامة معبرًا عمَّا في نفسه، فيبسط الكلام دون قيود أو تكلف، ومنها الرسائل الأدبية، وهذا النوع من الرسائل يكون عادة بين الأدباء، ولا يخلو من بحث قضيَّة أدبية أو نقدية. ومنها الرسائل الرسمية، وكانت تسمى الرسائل الديوانية، وهي أنواع مختلفة[٧]، وكلها ممَّا يكتب نثرًا، ولا تجعل هذه الرسائل شعرًا إلاَّ بمشقة[٨]، ويراعى فيها الجانب التداولي، أي ما يكون بين المرسل والمرسل إليه.

وممَّا لا خلاف فيه أن معظم رسائل الإمام التي أشرنا إليها آنفًا هي من قبيل الرسائل الرسمية، سواء منها ما كانت في إدارة شؤون الدولة ومصالح العباد أو

١) المصدر نفسه، ص٤٠-٤٥.

٢) المصدر نفسه، ص٥٠.

٣) المصدر نفسه، ص٥٢، ورسالته هنا على لسان الشيخ عيسى بن صالح.

٤) المصدر نفسه، ص٣٩-٤٠، (مراسلته لسليمان بن عبد الله الباروني).

٥) المصدر نفسه، ص١٤-١٧، ٣٤، (مراسلته لأبي الوليد القاضي).

٦) تُنظر الصفحات ٥٠٥-٥٢٩ من كتاب نهضة الأعيان بحرية عُمان، وثمة معظم الرسائل المشار إليها.

٧) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢١٣/٧. والشنطي، محمَّد صالح: فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعوديَّة، حائل، ط٥، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ص١٧٤.

٨) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: كتابه الصناعتين، تحقيق علي محمَّد البجاوي ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٩هـ، ص١٣٦.

في مخاطبة الملوك والأمراء، وعهود الولاة والقضاء، وقد اشترط كتابنا القدامى في مثل هذه الرسائل الفنية رسومًا وقواعد، أتى على ذكرها القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، ومنها الفواتح والخواتم واللواحق[١] ولا سيما البسملة وما يليها من الحمد في بداية الرسالة[٢]، وتحسن مراعاة مواقع آيات القرآن الكريم، وأبيات الشعر، وغيرها من الاستشهادات.

وما من شك في أن الأصول والقواعد في كتابة الرسائل الرسمية ممَّا أشار إليه الكتّاب من قدامى ومحدثين تمثل البناء الفني لهذه الرسائل، ليس من الناحية الشكلية فحسب، وإنَّما من خلال النتائج المرجوة من هذه الكتابة، ولاسيما أن بعض الأقدمين، ونعني به أبا هلال العسكري قد ربط الكتابة بالسلطان، كما ربط الخطابة بالدين[٣]، وإذا كان الأمر بهذه الخطورة، تُرى ما هي هذه القواعد الشكلية المشتملة على البناء الفني للرسائل عامة، ثمَّ لرسائل الإمام خاصَّة؟

في الإجابة عن السؤال نلحظ أولاً بأول ضرورة المناسبة بين المقام بما يعنيه من أطراف وظروف، أي المرسل إليه والغرض الذي من أجله كتبت الرسالة وبين الأسلوب وطريقة التناول ممَّا يجب مراعاته في هذا النوع من الكتابة، إذ يجب مثلاً تخير اللقب المناسب للمخاطب، ومراعاة الجانب الشكلي المتعلق بالعنوان والتحية والابتداء والختام. وهو في الواقع ليس شكليًّا على الإطلاق، فالافتتاح بالبسملة أمر يتعلَّق بالسنَّة النبويَّة، وكذلك التحية والسلام، وممَّا يجب مراعاته أيضًا مراعاة الترتيب المعتمد لأجزاء الرسالة: المقدمة، والعرض، والخاتمة، ويجب أن يكون فيها الحرص على تهيئة المتلقي ذهنيًّا ونفسيًّا بمد جسور من المودة والثقة سواء من الأعلى إلى الأدنى، أو من الأدنى إلى الأعلى إلاَّ أن يكون التوجه ذا ملابسات عسكرية أو حربية أو وطنية، وأمَّا العرض فمن المفروض أن يكون مركزًا بلا تطويل وإعلال بعيدًا عن التفصيل الممجوج، مع التركيز على الجوانب المهمة، واستبعاد الثانوي منها، وأمَّا الخاتمة فيشترط فيها توثيق الصلة التي مهد لها في المقدمة

---

١) القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٨/٦. وينظر: ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمَّد: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة، د. ت، ٩٦/٣.

٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٢١١/٦، ٢١٥.

٣) كتاب الصناعتين، ص١٣٦.

بعبارة مختصرة، وغالبًا ما تشفع بالدعاء، وكذلك "يجب أن يكون الأسلوب سهلا سلسًا لا يخلو من نبرة وجدانية، ولكن دون تكلف، كذلك ينبغي أن يحسن الكاتب التأتّي، فينفذ إلى وجدان المتلقي من المدخل المناسب الذي يروقه"[١].

واللافت أن هذه القواعد التنظيرية قد روعيت تمام المراعاة في رسائل الإمام الخليلي، فالإمام -رحمه الله- ماهر حاذق يضع الأمور في نصابها، ويخاطب الناس على قدر عقولهم وأفكارهم، أنّى توجهت هذه الأفكار، وفي أي مسار سارت، وهو ممَّا سنلحظه تباعًا من خلال مجموعة من الرسائل التي كتبها في شؤون الرعية وما يصلحها، وفي مجال الحفاظ على عُمان بلدًا مستقلاً له سيادته على كافة أراضيه، وفي مجال وحدة المسلمين والحفاظ على مقدساتهم.

البدء والعرض والختام:

البدء:

سبق الحديث فيما يجب مراعاته في هذه العناصر المكونة بائتلافها البناء الفني في أساسه وكونه غدا مقنعًا لناظره أنَّه أمام بناء متكامل، فإذا ما لحق به زيادة من هنا، وأخرى من هناك، وأضيفت إليه شرفات مطلة زادته روعة وجمالاً، فقد اكتمل البناء ممَّا لحقه من هذه الزيادات والإضافات، ونعني بها الخصائص التي تميز هذه الرسائل كأن يعمد الكاتب إلى السجع أو التوازن الموسيقى أو إلى الاقتباس والتضمين ويحسن الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي -عليه الصلاة والسلام-، أو يعرج على شيء من الأشعار ونحوه الأمثال، وكذا الأخبار التاريخية التي غدت مضرب المثل في شأن من الشؤون.

ولو أنا بدأنا نستعرض رسائل الإمام في الجوانب المشار إليها من بدء وعرض وخاتمة وخصائص مميزة، لوجدنا الإمام يبدأ في كثير من رسائله بالبسملة، وهو نمط مستمد من القرآن الكريم، والسنَّة النبويَّة، ويذكر أن رسول الله ﷺ هو أول من استهل رسالته بالبسملة[٢] بعدما نزلت الآية الثلاثون من سورة النمل: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

١) ينظر: فن التحرير العربي، ص١٧٧.

٢) صفوت، أحمد زكي: جمهرة رسائل العرب، المكتبة العلمية، بيروت، د.تا، ج١، ص٣٦.

وفيما يلي البسملة ممَّا يتضمنه البدء أو الاستفتاح نرى الإمام يبين عن المرسل وهو شخصه، وما آل إليه من إمامة للمسلمين فيقول: "بسم الله الرحمن الرحيم من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله"[١]، ثمَّ يثني بالمرسل إليه، وهو الشيخ عيسى بن صالح بن علي، فيعطيه من الألقاب، ويخلع عليه من الصفات ما يحقق التواصل على أوجه، ويوقد جذوة الحب والرضا في نفسه، فيقول: "... إلى الشيخ الأكرم الأعز الأحشم، الأخ الرضي العلَّامة عيسى بن صالح بن علي سلمه الله تعالى"[٢]، هذا مع ملاحظة الجملة الدعائية التي جاءت بآخره من ذكر المرسل إليه، ووصفه بالصفات الحميدة، فهذه هي الخطوة الأولى من الابتداء؛ إقامته وشائج المودة والتواصل بينه وبين المرسل إليه، ومن ثمَّ إلقاء التحية والسلام، وهي قوله: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام، فإنا نحمد الله إليكم لا زلت بحال الخير، وأعلامنا والحمد لله بخير، وبعد..."[٣] ونلاحظ هنا تحية الإسلام وإتباع السلام بالتحميد والإخبار عن وضعه، ثمَّ التزيد من الحمد إلى قوله: "وبعد"، والأصل فيها "أمَّا بعد"، وهي ممَّا توقف عنده أهل الإنشاء، وذكروا أنَّها كانت تتبع بالدعاء، فيقال: "أمَّا بعد، أطال الله بقاءك..."[٤]، ونحو ذلك، ونرى الإمام هنا اتخذها ممرًا إلى غرضه، وعرضه وحسب، فقال: "وبعد فإن مرباضًا نحن نعطيه كل سنة"[٥] وذكر القلقشندي أن بعض الكتّاب أعرض عنها، ونقل عن أبي هلال العسكري قوله: "وكان الناس فيما مضى يستعملون في أوائل فصول الرسائل "أمَّا بعد" وقد تركها جماعة من الكتّاب فلا يكادون يستعملونها... ثمَّ قال: فإن استعملتها إتباعًا للسلف ورغبة فيما جاء فيها من التأويل أنَّها فصل الخطاب، فهو حسن وإن تركتها توخيًا لمطابقة أهل عصرك وكراهة للخروج عمَّا أصلوه لم تكن ضائرًا"[٦].

فما ورد في هذا الابتداء يمثل نموذجًا من رسائل الإمام، فيما إذا هو ابتدأ المراسلة، بيد أن الملاحظ في الكتب التي صدرت عنه مجيبًا لا مبتدئًا تجاوزه ابتداء

---

١) الفتح الجليل، ص١.
٢) المصدر نفسه، ص١.
٣) المصدر نفسه، ص١.
٤) صبح الأعشى، ج٦، ص٣١٩.
٥) الفتح الجليل، ص١.
٦) صبح الأعشى، ٦/٣١٩.

البسملة والسلام ودخوله في الموضوع والردّ المطلوب مباشرة، من نحو ما كتب للشيخ عيسى مجيبًا: "أمَّا بعد فقد وصلني كتابك، واعلم أن مسيركم وتوسطكم في أمر الصلح بين بني غافر وخصمهم والحاج الشيخ زاهر..."[١] وكتب له أيضًا: "أمَّا مسألة الرستاق فإن كانت من باب الأحكام..."[٢] وكتب له أيضًا: "أمَّا بعد فقد وصلني كتابك، وقد وصلني بالأمس كتاب من الشيخ سليمان بن حمير"[٣] والواقع أن الإخلال هنا بالسلام مدعاة للتساؤل... هل لضرورة الرد وعظيم المسألة المطروحة، أو هم نقلة الرسالة جرّدوها من مقدمتها؟

وفي ابتداءة أخرى للإمام نلحظ ثاقب نظره وحسن تدبيره واقتداره على مداورة الأمر، والنفاذ إلى قلب المخاطب، وحمله على القبول لما سيطرحه من رأي أو إجابة أو فتوى. فيكتب مجيبًا عن أسئلة وردت إليه من علماء المغرب بسبب خلاف وقع بينهم البسملة والتحميد، ثمَّ ينثني إلى الدعاء يمزجه بآي الذكر الحكيم ممَّا يحمل على ترقيق القلوب، وإلهام الطرف الآخر أن مناط الأمر شريعة الله في كتابه وسنة نبيه، وأن الأمور واضحة كون النبي -عليه الصلاة والسلام- أكمل الدين وترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها. ثمَّ يدخل في موضوعه بفصل الخطاب "أمَّا بعد" ذاكرًا كتابه ولما أرسله إليه، ولا ينقطع عن الدعاء بجمع الشمل والتأليف بين القلوب إلى آخر الرسالة حيث يعدهم بوضع المسائل في أبوابها[٤].

ومن ابتداءاته ما كان يخاطب به الملوك المجاورين، وهو ما ذكره صاحب نهضة الأعيان، وقدم له بقوله: "صدرت بين الإمام وعاهل الجزيرة العربيَّة: جلالة الملك عبد العزيز الراحل وصاحب الجلالة عظمة الملك سعود بن عبد العزيز مكاتبات ودية كما ترى بعضها"[٥] وبعض هذه المراسلات ممَّا ورد في تراث الإمام المجموع في كتاب "الفتح الجليل"[٦]، وممَّا ابتدأ به المراسلة المنقولة عنه، بدؤه بالبسملة،

---

١) الفتح الجليل، ص٢.
٢) المصدر نفسه، ص٣.
٣) المصدر نفسه، ص٣.
٤) المصدر نفسه، ص١١-١٢، وينظر رسائل مماثلة في نهضة الأعيان، ص٥٢٥-٥٢٨.
٥) نهضة الأعيان، ص٥١٥.
٦) الفتح الجليل، ص٤٠-٤٥.

ثمَّ قوله ذاكرًا طرفه وشخصه، ثمَّ الطرف الآخر، وقد أنزله منزله، فقال: "من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله إلى الملك المحترم المعظم عبد العزيز بن عبد الرحمن"[١] ثمَّ توجه إلى سلام الإسلام وحمد الله والصلاة والسلام على نبيه "سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد، فإنِّي أحمد الله جل وعلا وأصلي وأسلم على نبيه المصطفى وعلى آله"[٢] ثمَّ أقبل على عرضه وطرحه، ونحوه مكاتبة أخرى إلى الملك نفسه تنحو مقدمته المنحى نفسه[٣]، وهذا ابتداء آخر للملك نفسه، فيقول:

"الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه الذين جددوا عهده، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أمَّا بعد فسلام من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله على الملك المبجل العزيز عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود المحترم ورحمة الله وبركاته"[٤].

ومن ابتداءاته المميزة ما كان راسل به سليمان بن عبد الله الباروني، وكان ممَّن يسعى في أمور المسلمين، وكان كلفه بحضور مؤتمر للأمة العربيَّة والإسلاميَّة وبحث قضيَّة وحدتها والدفاع عن مقدساتها، فيقول في مستهل رسالته: "بسم الله الرحمن الرحيم من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله بن سعيد الخليلي إلى أخيه ذي الشرف الباذخ، والمجد الشامخ، المجاهد في الله، الحامي لدينه سليمان بن عبد الله الباروني، أمَّا بعد، فإنا نحمد الله إليك"[٥] وكتب له أيضًا: "بسم الله الرحمن الرحيم من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله بن سعيد الخليلي إلى جناب المجاهد في سبيل الله، الغيور في دين الله، أخينا الشيخ سليمان الباروني، وفقه الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[٦].

وأمَّا عن ابتداءات عهوده، فكانت تأتي على النحو الآتي: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمَّد وآله، قد أقمت الشيخ عامر بن

---

١) نهضة الأعيان، ص٥١٦.
٢) المصدر نفسه.
٣) المصدر نفسه، ص٥١٧.
٤) المصدر نفسه. ونحوه رسالته إلى ولي العهد، ص٥١٨، ورسالته إلى أحد الأمراء، ص٥٢٢.
٥) الفتح الجليل، ص٣٩.
٦) المصدر نفسه، ص٤٠.

خميس، وجعلته نائبًا عني، وأجزت له ما يجوز لي أن أجيزه له من فصل الأحكام، والنظر في مصالح الإسلام..."[١] والملاحظ في الابتداء: التسمية، والحمد، والصلاة على النبي، ثمَّ الدخول في العهد، ومدى الصلاحية... ثمَّ التفاصيل الأخرى التابعة للعرض وما يليه من الخاتمة.

ونحوه هذا العهد لأحد القضاة، وقد اتفق مع ما سبق في الابتداء فيقول فيه: "بسم الله الرحيم الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمَّد النبي وآله وصحبه وسلم، قد جعلت سعود بن حميد بن خليفين قاضيًا على ديار حبس وعلى سناو وديار الشروج والخضراء والخرما بوادي عندام الفليج وبلدة بعد وسمد وتوابعها؛ ليحكم بين أهلها بحكم الله -جل وعلا-..."[٢].

العرض:

كثيرًا ما كان يدخل الإمام في عرضه بجسر لفظي، وهو الذي نُعت عند القدماء بفصل الخطاب، ممَّا أشير إليه، فبعد أن أنهى الحديث عن طرفي المراسلة، تابَعَ مسلِّمًا وحامدًا لله ﷻ ومعلمًا عن حاله، ثمَّ قال: "وبعد..."؛ ليدخل في الموضوع مباشرة على النحو الآتي: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام، فإنا نحمد الله إليكم لا زلت بحال الخير، وأعلامنا والحمد لله خير، وبعد فإن مرباضًا نحن نعطيه كل سنة من أجل الأيتام..."[٣] وقد لا يضع "بعد" أو "أمَّا بعد" وإنَّما يذكر حرف عطف يلج من خلاله الموضوع، يقول بعد ابتداء آخر يلي قوله: "بعد"، ثمَّ الدخول الفعلي في الموضوع من خلال حرف العطف (ثمَّ): "وبعد فإنا نحمد الله ﷻ على كلِّ حال ثمَّ هذا الكتاب من الشيخ زاهر، ويقول له علي النعماني، فإن يكن الأمر كذلك؛ فأيها الشيخ عيسى الأمل أن تلزم النُّعماني..."[٤] ونحو هذا ما بدأ به عرضه لموضوعه مع الملك عبد العزيز، يقول بعد ذكره طرفي المراسلة: "وبعد فإنِّي أحمد الله وأصلي وأسلم على نبيه المصطفى ثمَّ إنَّه لما انتشرت في

١) المصدر نفسه، ص٦٩٣.
٢) المصدر نفسه، ص٦٩٤.
٣) المصدر نفسه، ص١.
٤) المصدر نفسه، ص٢.

العالم سيرة الملك ابن السعود لتأمين السبل وإسداء المعروف... الموضوع"[١].

وأمَّا كتابه إلى إخوانه المغاربة، فقد اختلفت بعض موازينه؛ لضرورة لم الشعث، ودرء خطر الخلاف الواقع بينهم، فبدأ عرضه متجاوزًا طرفي المراسلة بداية؛ ليذكره بقواعده التي مهد بها أنَّها المرجع في التعامل، وبث الصلح بين المتخاصمين، فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله أرسل إلى المؤمنين رسولاً من أنفسهم يعلمهم الكتاب والحكمة (ذاكرًا الكتاب والسنَّة) لينتقل إلى بدء الرسالة من جديد مستعملاً "أمَّا بعد، فهذا كتاب يصل إن شاء الله إخواننا المغاربة أبا صالح وأبا إسحاق وأبا اليقظان ومن معهم من الأفاضل أصلح الله أمرهم وأيقظ هممهم لمصالح دينهم ودنياهم..."[٢].

وأمَّا عهوده فإنَّه لم يعتمد فيها أي مواصلة كلامية بين ابتداء المراسلة، والدخول في موضوعه، وإنَّما بدأ مباشرة بما يريد بحرف التحقيق "قد" فبعد البدء بالتسمية والصلاة على النبي يأتي قوله: "قد أقمت الشيخ عامر بن خميس، وجعلته نائبًا عني"[٣] وقوله: "قد جعلت سعود بن حميد بن خليفين قاضيًا..."[٤].

وأمَّا عن عروضه في هذه الرسائل والموضوعات التي طرقها، فقد تنوعت بين موضوعات إدارية، وأخرى سياسية، وثالثة في العلاقات الاجتماعيَّة الدينيَّة بينه وبين المشايخ، ولطالما نظر في أمور المسلمين، ووحدتهم، والحفاظ على مقدساتهم من خلال ما طرقه من أمثال هذه الموضوعات وغيرها في رسائله لسفير ما أو تكليفه أحد المشايخ بمخاطبة قنصل إنجلترا في وحدة الأمَّة العُمانيَّة، ووحدة أراضيها، فلا يفكرنّ باستباحة شبر واحد من أراضيها، وتأتي موضوعات عهوده في الولايات والقضاء متممة لمثل هذه التوجهات.

وأمَّا الإداريات من رسائله، فتتعلَّق بتصريف أموال المسلمين، ووضعها في مواضعها للأيتام والأرامل أو لأعطيات القبائل، ثمَّ في حل الخصومات بين الناس من فردية وقبلية، وقد يكون في تبرير أعطيات أو منعها والحدّ منها مع تحديد في

١) المصدر نفسه، ص٤٠ ونحوه رسائله إلى سائر الملوك والأمراء السعوديين، ص٤٠-٤٥.
٢) المصدر نفسه، ص١١-١٢.
٣) المصدر نفسه، ص٦٩٣.
٤) المصدر نفسه، ص٦٩٤.

كثير من الأحيان للمبالغ التي تُوزع، وقد تكون في الردّ على شكوى ما، ودفع مظلمة عن حي أو بطن من البطون العُمانيَّة[١] وسوى ذلك.

وأمَّا العرض السياسي لرسائله، فإنَّه يأخذ على الأغلب منحيين، المنحى الأول: في تشجيع سياسة الملك عبد العزيز أو ولي عهده، ومن جاء بعده في أمن المملكة، والحفاظ على الحج، وسلامة الحجاج، وأمنهم، ورعايتهم، ثمَّ التوصية ببعض الزوار من قبله أو الوفود التي يرسلها لزيارة الملك ونقل تحيات الإمام إليه[٢]. وأمَّا عرضه في استقبال سليمان الباروني لدى عودته إلى عُمان، فينمّ عن حب عميق لهذا الرجل الذي وصفه بالجهاد، والحماية لدين الله، والسعي للاستقلال، ومن ورائه حب الإمام نفسه لدينه وشريعة ربه واستقلال بلده، وقد أبان عن ذلك في تكليف آخر للباروني ليمثل العُمانيِّين في مجمع يعقد في مصر أو في غيرها؛ لبحث شؤون الأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة، والدفاع عن مقدساتها[٣] وكذلك نرى هذا الاندفاع الوطني في طرحه ورسائله فيما كتبه الشيخ عيسى بن صالح بإذن الإمام وعنه إلى قنصل بريطانيا في مسقط، وفي رسالته أمثال هذا العرض، يقول: "... ولذلك ضرورة إعلام جنابكم باسم الأمَّة العُمانيَّة أن الأمَّة لا تعترف بأي اتفاق خارجي يتعلَّق بالبلاد مع أي شخص كان، ولا تقبل مداخلة أجنبية بأي صورة كانت، وتمزق بسيوفها كل راية محدثة مهما كانت صبغتها، ولو بشبر من الأرض داخل حدود مملكتها..."[٤].

ناهيك عن عرضه على مشايخ المغرب فيما هدف إليه من وحدة صفهم ونبذهم الاختلاف والتقائهم على شرع الله لما فيه مصلحتهم دينًا ودنيا[٥] وكذلك عرضه في رسائله على المشايخ إخوانه فيما هو كائن أو طارئ من أمور المسلمين في البلاد العُمانيَّة[٦].

١) المصدر نفسه، ص١-٧٩ إذ معظم الرسائل في المواضع المشار إليه تنحو هذا المنحى.
٢) المصدر نفسه، ص٤٠-٤٥.
٣) المصدر نفسه، ص٣٩-٤٠.
٤) المصدر نفسه، ص٥٣.
٥) المصدر نفسه، ص١١-١٢.
٦) المصدر نفسه، ص١٣، ١٤، ١٥، ١٦ وغيرها.

الختام:

وهي النقطة الأخيرة من اللقاء الذي جرى محررًا بيد المرسل إلى المرسل إليه، وهو بمنزلة لحيظات الفراق لما قد تضمه من عبارات أخيرة، إما في توثيق علاقة ماضية ومحاولة توكيدها، وأمَّا في خلع بعض عبارات التجمل؛ لبث روح المحبة من الأول إلى الثاني، وغالبًا ما تكون أدعية أو سلامات له ولمن في طرفه وحوزته على أنَّه من الضروري أن يأتي الكلام الأخير موصولاً بما قبله بلفظ مساعد أو دونه، وبعد ذلك لا شيء سوى تقييد هذه المراسلة بالتاريخ الذي يعد ضرورة لا بد منها[١] ولاسيما في المراسلات الإدارية والسِّياسيَّة والعهود وسوى ذلك.

وللإمام حظوة في أكثر ما سبق ذكره، فحين عرض في رسالة أرسلها للشيخ عيسى بن صالح في حل قضيَّة مالية، وتوزيع بعض من المال بين الأفراد، قال مختتمًا: "ومرجع أمره إلى الشيخ هو أعلم بمواضعه والسلام"[٢] وفي رسالة أخرى من الإمام للشيخ عيسى، وقد حل القضيَّة المالية كاملاً، قال: "والباقي يؤدى، حررته يوم ٢٣ من شهر رمضان سنة ١٣٦٠"[٣]. وفي رسالة ثالثة أشار إلى ما قرره بقوله: "هذا، والسلام حررته بيدي يوم ٦ جمادى الثانية ١٣٥٤"[٤] وفي رسالة رابعة في الخلاف حول قضيَّة الرستاق، ختم مشجعًا الأطراف على حل الخلاف بما يشبه الحكمة، قال: "... فإن كانت الأمور تجري على الجد والاجتهاد ستجري، وإن كان على التعذر والاتكال فلا تمضي، هذا والسلام، يوم ١٢ رمضان سنة ١٣٥٤"[٥] وفي رسالة خامسة للشيخ عيسى بن صالح عن خلافات وقعت أدت إلى مقتل بعض الرجال، ختم كتابه بقوله معلقًا على تصرفات طرفي النزاع: "... والقصد نرسل لهم أحدًا يحكم في القضيَّة والسلام"[٦].

وفي مكاتباته السِّياسيَّة من نحو رسالته إلى الملك عبد العزيز التي بث فيها روح التشجيع لما يقوم به الملك من خدمة للحجاج، وحرص على أمنهم، نراه ختمها

---

١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٦/٢٧٦.
٢) الفتح الجليل، ص٢.
٣) المصدر نفسه، ص١.
٤) المصدر نفسه، ص٣.
٥) المصدر نفسه، ص٣.
٦) المصدر نفسه، ص٥.

بالحكمة والدعاء، قال: "... وفي الحقيقة أن فضيلة المرء مخبوءة تحت لسانه، والله المسدّد في القول والعمل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، لا ملجأ من الله إلاَّ إليه، حرر يوم ١٠ شوال ١٣٦٩"[١] ونحوه كتاب آخر يمضي على النحو السابق يقول: "... لتدخل تحت قوله ﷺ: الدال على الخير كفاعله، والله حسبنا ونعم الوكيل، ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، لا ملجأ من الله إلاَّ إليه، حرر يوم ١٠ شوال ١٣٦٩"[٢]. والملاحظ وحدة التاريخ في الرسالتين مع اختلاف مضمونيٍّ بينهما، وتفسير ذلك خصوصية الرسالة الأولى وعمومية الرسالة الثانية في آن واحد؛ فقوله: "وفي الحقيقة أن فضيلة المرء مخبوءة تحت لسانه" وإنَّما أراد بذلك محمَّدًا، وهو ابن العلَّامة السالمي، حمّله هذه الرسالة توصية به، وضمانًا لحقه عند الملك، وحمله الثانية العامَّة التي يمتدح فيها الإمام الملك برعاية الحجاج والوقوف على أمنهم، وما يسعى إليه من وحدة المسلمين.

وفي رسالة ثالثة أخبر الملك بوفد سيمر لزيارته والسلام عليه أنهاها على النحو الآتي: "وليمرَّا عليكم مسلِّمَيْن مؤدِّيَيْن بعض واجبكم. هذا مهم ولازم، والله يحفظكم والسلام عليكم وعلى من يعز لديكم من لدنا كذلك محررًا ١٩ ذي القعدة سنة ١٣٧٠"[٣]. وفي رسالة رابعة لولي العهد سعود بن الملك عبد العزيز إخبار عن تفويض محمَّد بن عبد الله السالمي لبناء بيت للعُمانيين في أرض المملكة، وكان ختمه على النحو الآتي: "... وهو المفوض من قبلنا وقبل العُمانيِّين في الأمر، هذا وحررته يوم ٢٥ ذي القعدة ١٣٧١ ثمَّ إن أتم السلام منَّا على أعيان أصحابكم ومن هنا كذلك يسلمون عليكم أعيان الأصحاب"[٤]. وما ذكرناه هنا من مكاتبات الإمام الخليلي ومراسلاته مع إخوانه ملوك السعوديَّة هو في مجال الشواهد الفنية اللازمة لإتمام دراسة الختام وبعض مواصفاته ممَّا تميزت به كتب الإمام[٥].

---

١) المصدر نفسه، ص٤١.

٢) المصدر نفسه، ص٤٢.

٣) المصدر نفسه، ص٤٢.

٤) المصدر نفسه، ص٤٣.

٥) الذي يمكن الإشارة إليه أن مكاتبات الإمام في هذا الاتجاه بلغت ست مكاتبات، وهي ممَّا ورد في الفتح الجليل، طبعة دمشق، إشراف عز الدين التنوخي، وطبعة ذاكرة عُمان التي ضبط نصَّها ووضع فهارسها: أحمد بن سالم بن موسى الخروصي، ولا خلاف بين الطبعتين، وإنَّما وقع الخلاف مع ما ورد في كتاب نهضة الأعيان بحرية عُمان لمحمَّد الشيبة بن نور الدين السالمي، فقد أورد أربعة ردود على رسائل الإمام من الملك عبد العزيز، ومن ولي عهده سعود بن الملك عبد العزيز، ومنه حال توليه حكم المملكة، ومن الأمير والي الشرقيَّة سعود بن

ومن هذا القبيل مراسلته للسفير الباروني ينهي فيها هذه المراسلة بتأكيد التكليف للسفارة وطريق ذلك، يقول: "... وأخبر رسولنا بكلِّ ما يلزم لنحيط به علمًا، والله الميسر والسلام، حرر ٣ محرم ١٣٤٣"[١]، وكذلك رسالته الأخرى إليه، يقول: "والمنتظر من جنابك موافاتنا بالأخبار الصحيحة بدون فاصلة، والله تعالى نسأله أن يوفقك والمسلمين أجمعين لما فيه خير دينهم ودنياهم آمين، رمضان المعظم ١٣٤٣"[٢].

وهذا ربما اختلف الختام في العهود التي كان يوصي به للولاية والقضاء؛ لما فيها من صيغة الحزم والأمر، ولما تحتاجه أمور الولاية والقضاء لمثل هذه النبرة، ففي توليته للشيخ عامر بن خميس ختم الكتاب بقوله: "... وحررت هذا وأنا إمام المسلمين محمَّد بيدي يوم ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٤٢"[٣] وفي توليته عامر بن خميس المالكي نائبًا عنه في إقامة صلاة الجمعة بنزوى، ختامه قوله: "... وحررت بيدي، وأنا إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله" (٢٧) وفي عهده لسفيان بن محمَّد بن عبد الله الراشدي بعيد نصحه له بالمناصحة بينه وبين الوالي وأن على الوالي إنفاذ حكمه وجدنا صيغ الدعاء، ثمَّ ما مر من العبارات الأخيرة في الرسائل السابقة قال: "... ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وصلى الله على رسوله محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين. كتبته وأنا إمام المسلمين محمَّد بيدي يوم ٩ من شهر جمادى الأخرى ١٣٦٤"[٤].

ولا شك أن تأكيده كتابة هذه العهود بيده هو من باب آخر تأكيد لنفاذ أمره وحصوله وأنّ على المرسل إليهم تنفيذ هذا العهد بحذافيره.

عبد الله بن جلوى. تُنظر الردود في نهضة الأعيان، ص٥١٦، ٥١٩، ٥٢١، ٥٢٢.

١) الفتح الجليل، ص٣٩.

٢) المصدر نفسه، ص٤٠.

٣) المصدر نفسه، ص٦٩٣.

٤) المصدر نفسه، ص٦٩٧.

خاتمة:

جرت العادة أن تلحق دراسة البناء الفني في الرسالة النثرية بدراسة خصائصها المميزة لها، من حيث هي جنس أدبي له أدبيته ولغته وأسلوبه، وما يشيع فيه من إيجاز أو إطناب ومن تضمين واقتباس، وما يرتاد سطوره من صور وخيال، وكلماته من سجع وإرسال، أو توازن في الموسيقى والإيقاع؛ ليحقق ذلك كله أدبية هذا الجنس، وتميزه عن سائر الأجناس.

غير أنَّ ما عرضنا له من دراسة البناء الفني في رسائل الإمام وإن لم يكتمل إلاَّ بالتوجه لما ذكرناه آنفًا من وجهات درسية جديدة ما نستطيع له وصولاً مع محدودية الوقت، وعدد الصفحات، وضيق فترة العرض، فهذا مدعاة لبعض الاختيار البحثي في رسائل الإمام نذكره هنا؛ ليتم مع البناء الفني صورة ميزتها الاكتمال، فيما انطوت عليه من دراسة الابتداء والعرض والختام، ثمَّ هذه الوقفة مع أسلوب العرض، وطبيعة التضمين والاقتباس.

فأسلوب الإمام وطرحه لكلماته وتعابيره عفو الخاطر ممَّا يحتاجه المقام وحسب من غير ما تقييد بسجع أو توازن في الإيقاع، هو الذي أعطى لهذه الرسائل كنهها، فأسلوب الإرسال، ومراعاة المقام، ومخاطبة المتلقي على قدره وعقله ورتبته من غير ما سجع ونحوه ممَّا كانت عليه رسائل الرسول -عليه الصلاة والسلام- والصحابة الكرام، هو الذي أعطى رسائل الإمام أولاً وأخيرًا الميزة الفنية والخلود والروعة، وأمَّا عن تضمينه القرآن الكريم وأحاديث النبي -عليه الصلاة والسلام- فقد جاء في مواضعه الجادة المفصلية ممَّا يتطلبه المقام، ويحتاجه المتلقي؛ لحمله على الالتزام بأمر ما، من نحو ما مرّ بنا من استشهاد مطول بالقرآن، والأحاديث الشريفة في مخاطبته المغاربة؛ لحملهم على التصالح فيما بينهم، وسوى ذلك كثير قد تجده موجزًا أو مطولاً بحسب الحاجة إليه، وضرورة الاستشهاد به.

المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمَّد: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة، د. ت.
- ابن دريد، أبو بكر محمَّد بن الحسين: جمهرة اللغة، تحقيق: د. منير رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: بهجة المجالس، تحقيق: محمَّد مرسل الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط١، ١٩٨٠م.
- ابن مرداس، العباس: ديوانه، تحقيق: د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- ابن منظور، محمَّد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- الخليلي، محمَّد بن عبد الله بن سعيد بن خلفان: الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، طُبع بإشراف عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة العموميَّة، دمشق، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- الخليلي، محمَّد بن عبد الله بن سعيد بن خلفان: الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، جمع وترتيب: الشيخ سالم بن حمد بن سليم الحارثي، فهرسة: أحمد بن سالم الخروصي، ذاكرة عُمان، ط١، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
- درويش، أحمد: تطور الأدب في عُمان، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م.
- السالمي، أبو بشير محمَّد بن شيبة بن نور الدين عبد الله بن حميد السالمي: نهضة الأعيان بحرية عُمان، من مكتبة التراث، د.م، د. ت.
- الشنطي، محمَّد صالح: فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه، ط٥، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، السعوديَّة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- صفوت، أحمد زكي: جمهرة رسائل العرب، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: كتابه الصناعتين، تحقيق: علي محمَّد

البجاوي ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

- الفراهيدي، الخليل بن أحمد: العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، قم، إيران، ط٣، ١٤٠٩هـ.
- القزويني الرازي، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤٠٤هـ.
- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت.
- كُثيّر عزة: ديوانه، تحقيق: د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- الكفوي، أبو البقاء: الكليات، قابله د. عدنان درويش ومحمَّد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.